"قراءة في حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه

بناء على ما تقدم ذكره في الفصول السابقة، وبناء على الرواية التي نقلها الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، يتضح بشكل جلي أن حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه"، وبقية الأحاديث التي يستدل بها الشيعة على الإمامة لا تحقق ما يطلبون الوصول إليه.

هذا نص رواية عبد الله بن عباس في صحيح البخاري:

وفي صحيح البخاري أيضا رواية أخرى عن الساعات الأخيرة من حياة نبي الإسلام تؤكد هذا المعنى، وراويها هو عبد الله بن عباس أيضا. قال: "إن علي بن أبي طالب ﷺ خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله

ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا. إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله في من هذا الأمر: إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها، لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ".

واضح من هذه الرواة أن العباس وعليا - رضي الله عنهما - لم يفهما من حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه" أن الخلافة من بعد النبي ﷺ تكون لعلي، سواء قيل هذا الحديث في غدير خم، أو في مناسبة أخرى.

الإمام البخاري لم يرو حديث الغدير في صحيحه. أما الإمام مسلم فقد رواه بصيغة مغايرة للصيغة التي احتج بها مركز الأبحاث العقائدية، وقد عرضنا الفرق الكبير بين الروايتين في الفصل السابق.

ورأيي أن الاكتفاء بهذين المصدرين في المسائل الخلافية بين المسلمين أفضل وأحوط، وخاصة إذا تعلق الأمر بالسياسة، إذ ما زال الناس يختلفون حولها في كل عصر ويروون الروايات المتضاربة بشأنها، بدوافع حزبية ومصلحية.

سألت بعض المحاورين الشيعة ذات مرة: هل تعرفون موقف آية الله السيستاني من قائمة الائتلاف الشيعي في الانتخابات العراقية التي جرت بعد الغزو الأمريكي للعراق؟ هل أيد القائمة أم وقف على الحياد؟ فأجابوا: لا نعلم.

قلت في عجب واستغراب: كيف؟ ألم يجر الأمر تحت رقابة وسائل

الإعلام المحلية والعالمية؟ ألم تصدر أخبار متواترة عن تأييد آية الله السيستاني لقائمة الإتلاف ورقمها ٥٥٥؟ قالوا: لسنا متأكدين.

هذا وأنا أعلم أن الجواب يتغير عند بعضهم بحسب السائل وبحسب السياق!!

قلت: سبحان الله. أنتم غير متأكدين من موقف السيستاني مع وجود الصحف والفضائيات ووكالات الأنباء العالمية، والرجل حي يرزق، فكيف تجزمون بصحة المصادر التي يعتمدها بعضكم لتأبيد الخلاف بين المسلمين وإدامته، وهي مصادر موروثة من مئات السنين، واختلف أهل الاختصاص في مصداقية رواتها ومعاني نصوصها؟

إن الانقسام السني الشيعي سياسي في الأساس. هكذا ولد، وهكذا ترعرع، ومازال سياسياً إلى اليوم؛ لذلك ينبغي على أهل العلم أن يبذلوا غاية الجهد عند تعاملهم مع النصوص والروايات، ويأخذوا بالأحوط.

بعد أن بينت منهجي هذا، ودعوت له، أجد من المفيد في الحوار مع علماء الشيعة أن أعرض بعض الروايات التي أخرجها إمام مدرسة أهل الحديث أحمد بن حنبل في شأن الإمام علي.

أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن البراء بن عازب وزيد ابن أرقم أن رسول الله ﷺ قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، فقال عمر بن الخطاب : هنيئا لك يا علي أمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه.. عن البراء بن عازب قال: كنا مع

رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا بغدير خم فنودي فينا: الصلاة جامعة. فصلى الظهر وأخذ بيد علي فقال: ألم تعلموا أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ بيد علي فقال : اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، قال فلقيه عمر بعد ذلك فقال له: هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة".

وأخرج الإمام أحمد أيضا حديثا في الفضائل عن ابن بريدة عن أبيه قال: "بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستعمل علينا علياً، فلما رجعنا سألنا: كيف رأيتم صحبة صاحبكم؟ فإما شكوته أنا وإما شكاه غيري فرفعت رأسي - وكنت رجلاً من مكة - وإذا وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد احمرّ فقال: من كنت وليه فعليّ وليه".

وروى ابن عباس عن بريدة قال خرجت مع عليّ ﷺ إلى اليمن، فرأيت منه جفوة، فقدمت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكرت علياً فتنقصته، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتغير وجهه، يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه".

هذه هي أشهر الروايات المتصلة بحديث "من كنت مولاه فعلي مولاه" من خارج الصحيحين، صحيحي البخاري ومسلم.

وخلاصة القول في أمر هذا الحديث الشريف، أنه سواء صدر من رسول الله ﷺ مبادرة منه في غدير خم خلال رحلة العودة من حجة

الوداع، أو جاء تعليقا منه في موضع آخر على بعض الصحابة الذين اشتكوا إليه من سيدنا علي رضي الله عنهم جميعا، فإنه يتضمن دلالة قوية على مكانة سيدنا علي في الإسلام وفضله ومحبة رسول الله ﷺ له.

لكنه لا يقرر أن النبي ﷺ عهد بالإمامة والخلافة من بعده لسيدنا علي رضي الله عنه.

وقد أقر بذلك واحد من غلاة علماء الشيعة المتأخرين، حسين النوري الطبرسي، المتوفى عام ١٣٢٠ هجرية، حيث أقر في كتابه المسمى "فصل الخطاب في مسألة تحريف كتاب رب الأرباب" بما يلي: "لم يصرح النبي لعلي بالخلافة بعده بلا فصل في يوم غدير خم وأشار إليها بكلام مجمل مشترك بين معانٍ يُحتاج إلى تعيين ما هو المقصود منها إلى قرائن".

وأقول فيما يلي قولا أرد به على عموم علماء الشيعة الذين يستدلون بحديث "من كنت مولاه فعلي مولاه" على صحة نظرية الإمامة، أقول ما يلي:

إن الذين رووا حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه" من كبار علماء أهل السنة لم يفهموا منه أن النبي ﷺ عهد بالحكم والإمامة بعده إلى سيدنا علي رضي الله عنه ولم يفهموا منه أن الله تعالى جعل الحكم والخلافة في سيدنا علي وولديه الحسن والحسين رضي الله عنهم، ثم في تسعة من ذرية الحسين، أحدهم حي يرزق ومختف عن أنظار الناس منذ أكثر من ألف ومئتي عام. ولو أنهم فهموا منه ما فهمه الشيعة الإمامية لكانوا على مذهبهم.

كما أن الرواية التي أخرجها البخاري في صحيحه، المتضمنة حوار العباس وعلي - رضي الله عنهما - بشأن سؤال النبي ﷺ في من الحكم بعده، تدل على أن العباس وعلياً لم يفهما مما جرى يوم الغدير ما فهمه علماء الشيعة الإمامية.

ولو فهم سيدنا علي ما فهمه علماء الشيعة من حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه" لما صدر منه هذا الخطاب لمعاوية ابن أبي سفيان: "إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ لِلَّهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى". (المصدر: نهج البلاغة. الكتاب رقم ٦. من كتاب له عليه السلام إلى معاوية)

ولو فهم سيدنا علي ما فهمه علماء الشيعة من حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه" لما قال للناس الذين أرادوا مبايعته بالخلافة بعد استشهاد سيدنا عثمان رضي الله عنه: "دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً!" (المصدر: نهج البلاغة. الخطبة ٩٢. ومن كلام له عليه السلام لمّا أراده الناس على البيعة)

ويدل حديث بعض زعماء المهاجرين في سقيفة بني ساعدة، ومناقشتهم للأنصار في أمر الخلافة، ومشاركة الأغلبية الساحقة من المهاجرين في البيعة العامة لأبي بكر الصديق في المسجد، أنهم إما لم يكونوا على علم بهذا الحديث أصلا، أو أنهم سمعوه ولم يفهموا منه ما فهمه علماء الشيعة الإمامية، والمهاجرون مصدر موثوق عند عموم المسلمين، يحبونهم ويوالونهم ويدعون لهم لفضلهم الذي شهد به القرآن الكريم والنبي ﷺ. إنهم الذين مدحهم رب العزة سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. (الحشر: ٨)

ويدل حديث زعماء الأنصار في سقيفة بني ساعدة عن رغبتهم في الإمارة، أنهم إما لم يكونوا على علم بهذا الحديث أصلا، أو أنهم سمعوه ولم يفهموا منه ما فهمه علماء الشيعة الإمامية، والأنصار مصدر موثوق عند عموم المسلمين، يحبونهم ويوالونهم ويدعون لهم لفضلهم الذي شهد به القرآن الكريم والنبي ﷺ. إنهم الذين مدحهم رب العزة سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

ويدل موقف ما يقرب من تسعين في المئة من عموم المسلمين في العصور السابقة، وفي عصرنا الحاضر، أي أكثر من مليار مسلم،

وموالاتهم لجميع الخلفاء الراشدين، ومحبتهم لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، أنهم لم يفهموا من الأحاديث التي يستدل بها الشيعة الإمامية لإثبات صحة مذهبهم أن النبي ﷺ عهد بالحكم والإمامة بعده إلى سيدنا علي ﷺ. ولو أنهم فهموا من هذه الأحاديث ما فهم الشيعة الإمامية لكانوا على مذهبهم.

هؤلاء جميعا يأملون أن يكونوا من ضمن الذين قال عنهم رب العزة سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾. (الحشر: ١٠)